مائدة الربّ من وجهة نظر الكنيسة اليوحنويّة
(يو ١٢: ١–١١؛ ١٣: ١–٢٠)[١]

الأخت باسمة الخوري الأنطونيّة

لم يأخذ البعدان الكنيسي والليتورجي حقّهما، في الدراسات الوافرة التي طالت الإنجيل الرابع. فالغنى اللاهوتي الفريد الذي يتميّز به هذا الإنجيل، وطابعه الروحي العميق، إستأثرا، إذا جاز التعبير، بالأبحاث والكتابات، طيلة حقبة واسعة من التاريخ. لكن الوعي لأهمية دور الجماعة الكنسية، التي بلورت هذا الإنجيل، أبرزت بشكل قاطع أن الكنيسة هي المسؤولة الأولى عن النص، الذي توالى على كتابته أكثر من شخص، حتى وصل إلينا على ما هو عليه.

من البديهي إذًا أن يكون إنجيل يوحنا ككل، كما كل مقطع فيه، مرآة تعكس صورة الجماعة التي كتبته، فيكون بالتالي أثرًا لخبرة عاشتها وأرادت تدوينها لأسباب وجيهة. إن نصوص الإنجيل اليوحنوي، دليل يوصلنا الى فرادة تكوين كنيسته، ومميزات قانون إيمانها، وخاصية ممارساتها، إلخ.

إنطلاقًا من هذه القناعة، نقدّم في هذه الدراسة، قراءة لمقطعين في الإنجيل الرابع، يتناول فيهما الإنجيلي موضوع مائدة الرب، من وجهة نظر كنيسته. المقطع الأول هو المتعلّق بمائدة الرب في بيت عنيا (يو ١٢: ١–١١)، ويتمحور الثاني حول مائدة عشاء الرب الأخير في يو ١٣: ١–٢٠.

سنتوقف في دراستنا على قراءة تفسيرية للنصين، وإبراز كيف أنهما يشكلان إنعكاسًا للمارسات الليتورجية في الكنيسة اليوحنوية، وكيف أن أدوار الشخصيات فيهما، يمكن أن تكون صورة للمسؤوليات التي كانت موزّعة على أعضاء هذه الكنيسة. هكذا نكون قد حاولنا لفت النظر الى أهمية الإنجيل الرابع في إلقاء الضوء علىناحية شبه مغفلة في الملفّ المتعلّق بمائدة الرب الإفخارستية من جهة، وتأكيد الفرادة اليوحنوية التي يجب أن تشكل عنصرًا مهمًا يساهم في تقدّم الدراسات حول الكنيسة والأسرار من جهة ثانية. عسى أن تكون هذه الدراسة مساهمة بسيطة في هذا الكتاب المهدى الى سيادة المطران بطرس الجميّل، ولفتة إلى الأهمية التي يجب إعطاؤها للإنجيل الرابع، في الأبحاث المتعلّقة بالمائدة الربّية.

---

[١] هذه الدراسة هي ملخّص أطروحة دكتوراه ناقشتها الأخت باسمة سنة ٢٠٠٢، ونشرتها جامعة الروح القدس الكسليك تحت عنوان
Les deux repas johanniques, (Jn 12, 1-8 et Jn 13, 1-20), figures de communauté/s johannique/s. Étude exégétique et critique, kaslik – Liban, 2006.

١– **المائدة: إطار اللقاء والإيمان والمشاكل والحلول**

كانت المائدة (dei/pnon) تشكّل عند الأقدمين، شبه مؤسسة إجتماعية، تؤكّد هوية كل جماعة وفرادتها. فكانت المجموعات الإقتصادية، والدينية، والفلسفية، كما جماعات التيارات اليهودية، والجماعات المسيحية الأولى، تسعى الى تنظيم نشاطاتها الجماعية حول مائدة مشتركة[٢]. فقد كانت المائدة (dei/pnon) هي الناحية المنظورة ولكن العميقة، التي تعبّر فيها الجماعة عن وحدتها. مع كونها عادة يونانية –رومانية، فالمائدة الـ(dei/pnon) لم تكن غريبة عن الإطار اليهودي، الذي تأثّر فيها لدرجة تبنّيه طريقة الإستلقاء للأكل، وطريقة تقديم الطعام.

تميّزت هذه المائدة (dei/pnon) بناحيتين أساسيتين: الأولى هي فرح اللقاء حول المائدة، والثانية هي النقاشات والحوارات العميقة التي كانت ترافقها، والتي تتمحور حول المواضيع التي تهمّ الجماعة. كانت هذه اللقاءات تتمّ دائمًا تحت رعاية أحد الأبطال أو أحد الآلهة، بحيث تبدأ دائمًا بطقس ليتورجي أو صلاة ما لراعي المائدة.

وكان للمائدة اليونانية (dei/pnon) أصول وطقوس محدّدة لا يمكن تجاوزها، على ما نقرأ في كتاب أفلاطون وغيره من الفلاسفة[٣]. أما في العالم اليهودي، فقد كان كسر الخبز وتوزيعه، هو الطريقة الطبيعية لبدء الطعام، في الموائد التي يشترك فيها مدعوون، كما كان شرب الكأس هي الطريقة الشائعة لختامها؛ أما أثناء الطعام فكان الجميع يتلو صلوات البركة المتعددة. كان الكثير من التيارات اليهودية المعاصرة ليسوع، يمارس المشاركة في المائدة على ما نقرأ في إر ١٦: ٧ وفي المشنا (بيراكوت ٦: ١؛ ٧: ١). ولنا في المجادلات بين يسوع والفريسيين حول طريقة تناول الطعام، برهان على أن عادات هؤلاء في آداب المائدة، كانت عناصر أساسية تميّزهم عن غيرهم من اليهود. وفي قمران أيضًا كان أعضاء الجماعة يتشاركون الطعام مرتين يوميًا،

---

[٢] رج مثلًا: Cf. DESSAU, *Inscriptiones Latinae Selectae*, edited, H. DESSAU, Lipsia, 1892-1916, p. 7212 الذي يتكلم عن حزب مدفني لديانا وأنطينوس (القرن الثاني)؛ و
F. SOKOLOWSKI, *Lois sacrées des cités grecques*, École Française d'Athènes. Travaux et mémoires des anciens membres étrangers de l'école et de divers savants, 18; Paris, Boccard, 1969, pp. 95-100
من أجل دراسة لمختلف الأحزاب الدينية.

[٣] كان للمائدة بحسب أفلاطون نظام يبدأ من استقبال المدعوين حتى ذهابهم. نعند وصل أحد المدعوين، كان من المفروض أن يستقبله الخادم أمام الباب، ليُدخِله الى صالة الطعام، في حين يقوم خادم آخر بمساعدته على خلع حذائه وغسل رجليه تحضيرًا ليأخذ مكانه على فراش الأكل (رج PLATON, S*ymposium*. 175A; 213 B.؛ لو ٧: ٤٤– ٤٧). كان المدعوون يأخذون أمكنتهم إنطلاقًا من المكان المحوري الأوسط أمام مائدة بشكل ثلاثية االأضلاع "*triclinium*" ، بحسب مرتباتهم، أو مراكزهم في الجماعة. وكان كل شخص يعرف مكانته فلا ينتظر أن يُعطى له مكان أرفع، أو أدنى مما هو له. بعد ذلك كان الخادم يُقدّم ماء للجميع فيغسلون أيديهم قبل تقديم الأطباق.
وكانت الأخلاقيات مرتبطة بالموائد في مختلف التقاليد الفلسفية، لأن الموائد كانت مناسبات للنقاشات الفلسفية حول الحب والصداقة واللذة وغيرها (رج Plutarque, Quasetionum Convivialum; Septum sapientium, 612D).

دلالة حسّية على وحدتهم. كان يترأس هذه الموائد كاهنٌ؛ وكان الأعضاء يأخذون فيها أماكنهم بحسب ترتيب صارم؛ في حين لا يمكن للمبتدئين المشاركة بها إلا بعد انتهاء مدة امتحان ثباتهم.

وقد استعمل العهد الجديد موضوع المائدة (dei/pnon) وكل المواضيع المرتبطة به بشكل متواتر[٤]، وكأن يسوع وجد في إطار المائدة، المكان الطبيعي لخطاباته التعليمية. ورأت الكنيسة الأولى أيضًا أن المائدة تشكل الإطار الأسلم للمشاركة في الأفكار والتعاليم حول يسوع، كما للمشاركة في العبادات والليتورجية. فإلى مائدة علّم يسوع عند سمعان الفريسي (لو ٧: ٣٦–٥٠)، وعند مرتا ومريم (لو ١٠: ٣٨–٤٢)، وعند أحد الفريسيين (لو ١١: ٣٧–٥٤)، وأثناء العشاء الأخير مع تلاميذه (لو ٢٢: ١٤–٣٨)؛ ويؤكّد القديس يوحنا بأن كل خطابات الوداع تمّت أثناء العشاء الأخير (يو ١٣–١٧). وقد أخذ موضوع خدمة المائدة حيّزًا كبيرًا في تعاليم يسوع، فقدّم نفسه كمن أتى "ليَخدُم وليس ليُخدَم" (مت ٢٠: ٢٨)، معطيًا ذاته مثلًا يُحتذى في الكنيسة. كما دعى التلاميذ الى الخدمة فيكون جزاؤهم بأن يُخدَموا على مائدة المسيح. ويُظهِر لوقا يسوع كمن يدعو الى المائدة المسيحانية ليخدُم مدعويه بنفسه (لو ١٢: ٣٥–٣٧). ويمكننا أن نفهم من بعض النصوص، بأن خدمة يسوع إلى المائدة هي صورة للعبادة الحقة، كما في نص لو ٧: ٣٦–٥٠ حيث يثني على تصرفات المرأة، التي فاقت بكثير خدمة سمعان الفريسي، الذي دعاه الى مائدته ولم يقم حتى بالخدمة العادية للمدعوين العاديين.

المائدة (dei/pnon) في الإنجيل اليوحنوي

على مثال المدارس الفلسفية والدينية والإجتماعية المختلفة، يبدو إذًا أن الإشتراك في الموائد كان يلعب دورًا مهمًا في "مدرسة يسوع" الناشئة. لكننا نلاحظ إختلافًا بين مواقف يسوع في الأناجيل الإزائية، ومواقفه في الإنجيل الرابع. ففي حين يبدو يسوع الإزائيين منفتحًا للجميع، لا يحترم قواعد المجموعات، "الأخويات"، المختصّة بالمائدة، فنراه يأكل مع جباة الضرائب والخطأة (لو ٥: ٢٧–٣٢؛ ٧: ٣٤؛ ١٥: ٢؛ مر ٢: ١٣–١٧)، إضافة الى العميان والبرص، والبكم–الصم إلخ (لو ٧: ٢٢؛ ١٤: ٢١)؛ لا ينقل الإنجيلي الرابع أي مائدة شارك يسوع فيها أيّ من المهمّشين.

لا يذكر الإنجيل الرابع سوى مائدتين (dei/pnon)، يشترك فيهما تلاميذ معروفون (١٢: ١–٨ و ١٣: ١–١٧). في المائدة الأولى نجد مرتا ومريم ولعازر الذي كان يسوع يحبهم، إلى جانب يهوذا "أحد التلاميذ"؛

---

[٤] رج لو ٤: ٣٨–٣٩؛ ٧: ٣٦–٥٠؛ ١٠: ٣٨–٤٢؛ ١٧: ٧–١٠؛ ٢٢: ٢٥–٢٧؛ أع ٢: ٤٦؛ ٦: ١–٦؛ مر ١٠: ٣٥–٤٥. وفي نص لو ١٠: ٣٨–٤٢ ما يسمح لمريم بالحصول على مرتبة التلميذ، في حين تحصل مرتا على مرتبة الخادم على مائدة الرب.

وفي الثانية لم يكن هناك سوى تلاميذ يسوع. تدل هذه الملاحظة على الطابع الجماعي "الكنسي" الذي يعطيه يوحنا لهذه الموائد، واضعًا القاريء على خطٍ يحدّده بحسب نظرته للأمور، بحيث لا يمكن قراءة هذين النصّين إلا على خلفية كنسية يوحنوية.

يتمحور كلُ من الحدثين حول "تصرّف" مشكوك فيه يتضمّن غايات "كنسية". في مائدة بيت عنيا (١٢: ١–٨)، نحن أمام تصرّف غير صوابي، تقوم به مريم إكرامًا "ليوم دفن" يسوع مما يشكل معضلة ليهوذا؛ وفي مائدة العشاء الأخير (١٣: ١–١٧) يشكّل موقف الخادم، الذي أخذه يسوع، مشكلة لبطرس.

يمكننا، من خلال الدراسة المعمّقة للنصّين (الأطُر، والشخصيات الضالعة في كلٍ من الحدثين، والمشاكل المطروحة فيهما)، وجود كنيسة يوحنوية، وبعض الإشارات التي تدلّ على المشاكل التي كانت تواجهها في إيمانها وفي التعبير عنه (في النص الأول)، وفي تحديد أسس المسؤولية الكنسية وممارستها (في النص الثاني).

٢– مائدة الرب في بيت عنيا: مائدة الايمان بالمسيح ابن الله

بعد قيامة لعازر من الموت، ينقل إلينا الإنجيلي الرابع قرار السلطات اليهودية القاطع بقتل يسوع (١١: ٥٣)، يبتعد يسوع على أثرها الى ناحية قريبة من الصحراء (١١: ٥٤)، ثم لا يلبث أن يعود الى دائرة الخطر باتخاذه القرار بالذهاب الى أورشليم للإحتفال بالفصح (١١: ٥٥).

لكن يوحنا، وقبل حديثه عن دخول يسوع الملوكي الى أورشليم (١٢: ٩–١٩)، يتوقّف عند زيارة قام بها يسوع الى بيت عنيا" حَيثُ كانَ لَعازرُ الَّذي أَقامَه مِن بَينِ الأَموات"، ويُخبِر عن مائدة (dei/pnon) أُقيمت له هناك (١٢: ١–٨). للخبر نصوص مشابهة عند مرقس ومتى (مر ١٤: ٣–٩؛ مت ٢٦: ٦–١٣)، ويتوافق في بعض التفاصيل مع نص لوقاوي (لو ٧: ٣٧)

- يتفق الجميع في الكلام عن امرأة لا يسمّيها متى ولا مرقس؛ هي مريم عند يوحنا، في حين يتكلم لوقا عن خاطئة من المدينة
- تمسح يسوع على رأسه عند متى ومرقس؛ على قدميه بالطيب عند يوحنا؛ وبدموعها وبالطيب عند لوقا
- مما يتسبب بتذمّر بعض الحاضرين عند مرقس؛ أو التلاميذ عند متى؛ أو الفريسي عند لوقا؛ أو يهوذا عند يوحنا
- وبتدخّل يسوع موافقًا على تصرّفها.

إلى جانب التشابهات العامة في الحدث بحسب الأناجيل الأربعة، يتفرّد يوحنا بجمع تفاصيل من متى ومرقس، إلى جانب تفاصيل أخرى من لوقا الذي يختلف عنهما تمامًا، كما ينفرد في إطار الحدث وشخصياته، وأهدافه.

يضع يوحنا الحدث في إطار عائلة بيت عنيا (١١–١٢: ١١)، متخطّيًا المسحة المسيحانية والتكفين المستَبَق بحسب متى ومرقس؛ دون أن يتوقف عند لاهوت التوبة–المغفرة التي يشدد عليها لوقا.

لا يذكر يوحنا صاحب البيت حيث يدور الحدث، لكنه يقدّم مريم، أخت لعازر ومرتا، على أنها المرأة التي قامت بالمسحة[٥]. فقد أخذت هذه الأخيرة كمية كبيرة جدًا من الطيب الذي يصنّفه مرقس (١٤: ٣٥) لتقوم لتقوم بعملين قامت بهما الخاطئة اللوقانية بعد بكائها عند قدمي يسوع : دهن قدمي يسوع بالطيب ومسحهما بشعرها (لو ٧: ٣٨). وبعد تذمّرٍ يتوافق مع ما يذكر مرقس من تذمّر التلاميذ دون تحديد هويتهم، ويحدده الإنجيلي الرابع بيهوذا، (مع تأكيده بأنه كان مسؤولًا عن المال وسارقًا له)، يتدخّل يسوع مدافعًا عن تصرّف مريم، ولكن من خلال منطق لا يتوافق مع منطق الإزائيين.

استعمل يوحنا الإطار الفصحي المرقسي المتي، لكنه ابتعهد عنهما ليقترب من تصرّفات المرأة اللوقانية على قدمي يسوع، دون أن تكون أهدافه مشابهة لأهداف لوقا. فلماذا أرادت مريم مسح الطيب الذي سكبته على قدمي يسوع بشعرها؟ فإن كان ذلك مفهومًا في إطار توبة الخاطئة التي بلّلت قدميه بدموعها، عند لوقا، فإن ذلك يبقى غريبًا في الإطار اليوحنوي!

هذا ما لا يمكن أن نفهمه إلا في إطار الجماعة اليوحنوية التي أرادت، من خلال وضعها الحدث في إطار ممارستها للمشاركة في المائدة الجماعية، تذكارًا لفصح المسيح. بهذا جعل يوحنا من الحدث خلافًا بين نظرتين مسيحانيتين في الإيمان بيسوع المسيح، تحكمان طريقتي عيش ضمن الجماعة الواحدة، وطريقتي ممارسة للسلطة فيها. يهدف الحدث في الإنجيل الرابع الى إظهار صورة الجماعة اليوحنوية الحقة، من خلال إظهار مشاكلها على الصعيدين العقائدي (الكريستولوجي) والنظامي مع أحد المسؤولين (يهوذا أحد الإثني عشر).

مائدة بيت عنيا، مائدة التلاميذ الحقيقيين

---

[٥] يقدّم يوحنا في النص أربع شخصيات هي أعضاء عائلة بيت عنيا مرتا ومريم ولعازر إضافة الى يهوذا. لم يذكر الإنجيلي في النص أن مرتا ومريم ولعازر هم إخوة، لكنه يجعل من النص تتمة لما سبق من قصة لعازر الذي أقامه يسوع من الموت بحيث يفهم القاريء بأنه يتكلم عن العائلة عينها.

في إطار نزاع بين الإيمان بيسوع من جهة، والحكم عليه بالموت من جهة ثانية[6]، يقدّم يوحنا عائلة بيت عنيا. عائلة أعضاؤها هم أحباء يسوع (١١: ٣، ٥، ٢٦)، وهي التي تقبّلت الخلاص الإلهي بيسوع المسيح ابن الله، بالرغم من مظاهر الموت (١١: ٢٥، ٣٩) ومن كل المخاطر (١٢: ١٠-١١)، وبقيت مجتمعة حول شخصه (١٢: ١-٤). في هذا الإطار، يلعب إستقبال يسوع حول مائدة (dei/pnon) دورًا أساسيًا في صلب منظومة الإنجيل الرابع الروائية، فيؤكد بأن القسم الأول من الإنجيل لم ينتهِ بالفشل، بل، في إطار فصحي (١٢: ١)، ضمن جماعة حميمة تأسست حول يسوع "المسيح ابن الله"، الذي يعطي الحياة لمن يؤمنون به (١١: ٢٥). لكن النص ليس مجرّد خاتمة، بل هو إنطلاقة جديدة للقسم الثاني من الإنجيل، تعلن أهم مواضيعه المتمثّلة بذهاب يسوع القريب، ووضع التلاميذ في غيابه (١٣-١٧).

إطار النص (يو ١٢: ١-٢) والمناسبة (١٢: ٢)

من خلال التاريخ والمكان والمناسبة وجوّ الخبر، يعطي الإنجيلي القارىءَ كل المعلومات التي يرتأي بأنها أساسية لفهم ما يريد قوله.

يضع يوحنا الحدث في قلب قصة قيامة لعازر، من جهة، وستة أيام قبل الفصح الذي لن يُسمّى بعد الآن أبدًا "فصح اليهود"، من جهة ثانية، موجّهًا بالتالي الحدث الى أحداث الصليب. ليست بيت عنيا إشارة مجانية عند يوحنا، فهي ليست مجرد مكان يمرّ فيه في طريقه إلى أورشليم، بل هي مكان يقصده. ترتبط بيت عنيا بآية قيامة لعازر، بحيث يكفي ذكر إسمها ليعود صدى خبر هذه القيامة. في بيت عنيا ختم يسوع رسالته الأرضية التي أوكله بها الآب. هنا عرّف الناس كلمة الآب، وأعطى الحياة لمن آمنوا به فتمم الخلاص، على حسب ما يعلن الإنجيلي في خاتمة إنجيله (٢٠: ٣٠). لكن الإنجيلي لا يكتفي بذكر إسم البلدة، بل يذكر إسم لعازر الذي أقامه يسوع من الموت، والذي كان يحبه مع أختيه (١١: ٥). لعازر، في صمته، هو الشاهد على قوة يسوع ومسيحانيته. إنه الشاهد على أن يسوع هو القيامة والحياة، فتحوّل آية أمام العالم، تستبق الساعة التي فيها يسمع الأموات صوت ابن الله فيحيون (يو ٥: ٢٥). إن المائدة التي نحن بصدد القراءة عنها، هي مائدة من سمعوا صوت الإبن فوجدوا الحياة، ولا يمكن أن نقرأ الخبر إلا في هذا الإطار. نحن إذًا في إطار كنسي فصحي أراد الإنجيلي إبرازه منذ البداية. لعازر هو البرهان القاطع أن يسوع هو إبن الله، الذي تحقق فيه خلاص الله.

---

[6] يصل هذا النزاع الى قمته في يو ١٠: ٢٢ت. هنا يقوم يسوع بأعظم آياته فيقيم لعازر بعد أربعة أيام من موته، مما يتسبب بإيمان البعض (١١: ٤٥) وعدم إيمان البعض الآخر (١١: ٤٧-٥٣).

أما المناسبة فلقاء حول مائدة (dei/pnon)[٧] تجمع أشخاصًا لا يسمّي منهم الكاتب إلا مرتا التي "تخدم" ولعازر "الذي أقامه يسوع من الموت" (ثم تأتي فيما بعد مريم، ثم يهوذا). يقول يوحنا بـ"أنهم أقاموا له مائدة" دون أن يقول من الذي قام بذلك. فالمهم عنده هي المائدة والإطار "العائلي" والإيماني التي صُنِعت فيه. لكنه يؤكد بأن مرتا "كانت تخدم". صحيح ان ذكر مرتا يأتي ليشدّ الروابط بين هذا النص وحدث قيامة لعازر، لكن الأهم هو في الصورة التي يعطيها يوحنا لهذه الشخصية الإستثنائية. فمرتا تأتي في رأس لائحة أسماء أعضاء عائلة بيت عنيا (١١: ٥)، هي التي أخذت المبادرة أمام حالة "أخيها" الحرجة، فأرسلت تدعو يسوع (١١: ٣)؛ وهي التي بادرت الى ملاقاة يسوع، ما إن سمعت بمجيئه (١١: ٢١) وأقامت معه حوارًا كريستولوجيًا صعبًا، إنتهى بكشف يسوع عن ذاته بطريقة فريدة، تشكل قمة في رسالة يسوع العلنية "أنا القيامة" (١١: ٢٥) من جهة، وبإعلان إيمان من قِبَل مرتا "نعم يا رب أنا أؤمن **بأنك المسيح إبن الله**" (١١: ٢٧)، هو الإعلان الأكمل للإيمان المسيحي بحسب النظرة اليوحنوية "... لتؤمنوا بأن **يسوع هو المسيح ابن الله**، فتكون لكم الحياة ..." (٢٠: ٣٠). آمنت مريم... فكانت الحياة للعازر أخيها.

يبدو هذا الإعلان وكأنه الموازي لإعلان ايمان بطرس عند الإزائيين (مت ١٦: ١٥-١٩)، لكن يوحنا يضعه ليس على لسان أول الرسل، بعد آية تكثير الخبز، بل على لسان مرتا قبل آية قيامة لعازر. إن إيمانها شرط أساسي لتتميم الآية (١١: ٢٦، ٤٠).

مرتا المؤمنة، الأخت الكبرى، المهتمة بحياة الأخ والعارفة بمن تضع ثقتها، هي التي تخدم مائدة الرب. والفعل الذي يستعمله يوحنا في كلامه عن هذه الخدمة هو الفعل عينه الذي استعمله لوقا في كتاب أعمال الرسل للكلام عن خدمة الموائد وخدمة الكلمة (أع ٦: ١-٦)، ولا يستعمله يوحنا إلا هنا وفي كلامه عن التلميذ الذي إن أراد أن يخدمه فليتبعه (١٢: ٢٦) مما يجعل من مرتا مثال التلميذ الذي عرف كيف يكون على علاقة وثيقة بالرب. في كل الأحوال لا بد وأن يكون بين خدمة مرتا لمائدة يسوع في هذا النص، علاقة بما قام به يسوع لتلاميذه في نص غسل الأرجل. إن المسؤولة التي أعلنت إيمانها الصحيح بيسوع، والتي تخدم مائدته، عرفت كيف تتبع ربها ومعلّمها. إن الأمر يتخطى الخدمة العادية للمائدة، لتطال خدمة يسوع نفسه وخدمة عشائه.

---

[٧] كما سنجد في ١٣: ٢، وفي ما ينقله لوقا وبولس في النصوص المتعلّقة بالعشاء الأخير وامتداداتها في الموائد الجماعية المسيحية (لو ٢٢: ٢٠؛ لو ١١: ٢٥؛ رج لو ٧: ٣٧).

الحدث: مريم تسكب الطيب على قدمي يسوع وتمسحهما بشعرها (١٢: ٣)

المشكلة: تبذير المال (١٢: ٤–٦) والحل (١٢: ٧–٨)

أبعد من كونه مجرّد غسل لرجلي يسوع كعلامة لاستقباله وتتميم لياقات الضيافة، يندرج عمل مريم في إطار الذبيحة الطيبة الرائحة. والحال أن يوحنا لا يذكر هذه الرائحة "التي عمّت البيت" إلا بعد تتميم مريم، أخت مرتا ولعازر، لكل حركتها : سكبت الطيب على قدمي يسوع من جهة، ومسحتهما بشعرها من جهة ثانية. إن لشعر مريم الذي مسّ قدمي يسوع دور في نشر الرائحة الطيبة في كل البيت/الكنيسة.

طبّق العهد القديم عبارة "الرائحة الطيبة" بشكل أساسي على الذبائح المقدّمة على المذبح. فأتت ٤٣ مرة، منها ٣٨ مرة في إطار الشرائع المتعلّقة بالذبائح. ونقرأ في لا ٢٦: ٣١ "أنا لا أرضى بذبائحكم طيبة الرائحة" في إشارة إلى نتائج خيانة الشعب. الرائحة هي في الحقيقة الإنتقال من المادة الى الروح، نظرًا إلى أن الرائحة لا تُرى ، على عكس الدخان. لم تعُد مريم، وعائلة بيت عنيا، بحاجة الى ذبيحة، فيسوع هو الحمل الفصحي وهو الهيكل الحق (٢: ١٩؛ ١٩: ٤)، فالذبيحة الروحية المقدّمة هي طيب فائض سكبته "الأخت" على قدمي من قدّم نفسه ذبيحة لحياة الجميع؛ وسجود كامل للأرض على قدميه حتى مسحتهما برأسها (شعرها). لقد حلّ يسوع مكان الحجارة التي كانت تُسكب عليها الذبائح لله. إنه حضور الله بالذات والهيكل الذي هُدم فبُني في ثلاثة أيام.

لو لم تسجد مريم أمام الرب لما كان لذبيحتها قيمة. فما يبغي يوحنا قوله هو أن إعلان حضور الله في العالم بشخص يسوع، لا يتم بسكب الطيب أمامه، ولو كان بشكل فائض وثمين، بل بسكب الذات أمامه. إن ممارسة طقسية أو عبادة ليتورجية كسكب الطيب، لا تكتمل إلا بموقف سجود تام. هكذا فقط يمتلىء البيت/الكنيسة بالرائحة الطيبة.

تأخذ المشكلة المكان الأكبر في النص، فيعطي يوحنا حيّزًا واسعًا للتعريف عن يهوذا المعترض على الحدث، والمعضلة التي يعرضها.

يهوذا في الإنجيل الرابع هو احد الإثني عشر (٦: ٥–٩)، دعاه يسوع شيطانًا (٦: ٧٠)، دخل فيه الشيطان (١٣: ٢٧)، بعد أن كان إبليس قد وسوس له في قلبه أن يُسلِم يسوع (١٣: ٢). يؤكد الإنجيلي أن يهوذا، أحد التلاميذ، هو مسؤول مهم في الجماعة، لأن المال بيده من جهة، وأنه تلميذ سارق من جهة ثانية. فإن اعترض على ممارسات عائلة بيت عنيا، فليس ذلك لأنه يحافظ على مال الجماعة، بل لأنه لا يؤمن الإيمان الصحيح، وبالتالي لا يمارس السلطة بطريقة صحيحة، وكأنه صورة عن الراعي السارق والأجير الذي يتكلم عنه يسوع في يو ١٠. إنتقد يهوذا، بصفته مسؤول في الجماعة، طريقة "عائلة بيت عنيا" في تكريم يسوع: " لِماذا لم يُبَعْ هذا الطِّيبُ بِثَلاثِمِائَةِ دينار، فتُعْطى لِلفُقَراء؟" (يو ١٢: ٥). فإن كان ما يقوله منطقي، فإن

الإنجيلي يلفت نظر القاريء الى شخص من يقوله ولماذا يقوله: إن هذا المسؤول ليس راعيًا صالحًا "لَمْ يَقُلْ هذا لاهتِمامِه بِالفُقَراء، بل لأَنَّه كانَ سارِقًا وكانَ صُندوقُ الدَّراهِمِ عِندَه، فَيختَلِسُ ما يُلْقى فيه" (١٢: ٦). لقد نقل يوحنا نظر القاريء من مستوى الأعمال الى مستوى الأشخاص التي يقومون بها، وبالتالي الى مغزاها الجوهري الذي يتخطى ما نراه. يكمن معنى الحدث في النزاع بين عائلة بيت عنيا وما تمثّله، وبين يهوذا وما يمثّله.

في جوابه ينقل يوحنا الرد على اعتراض يهوذا الى المرتبة الثانية، ويُبرز قيمة عمل مريم في المرتبة الأولى "...حَفِظَت هذا الطِّيبَ لِيَومِ دَفْني. إنَّ الفُقَراء هم عِندكم دائِمًا أَبَدًا، وأَمَّا أَنا فَلَستُ عِندكم دائِمًا أَبَدًا"، وكأنه يعطي درسًا لكل مسؤول بين التلاميذ، سيجد نفسه أمام مشكلة تمييز أمام المشاكل التي ستعترض الجماعة في غياب يسوع. لقد قامت مريم بما قامت به إكرامًا ليوم دفن يسوع، بل تذكارًا يستبق ما سيقوم به المؤمنون إكرامًا لفصح الرب. صحيح أن شرح النص درَجَ منذ القِدَم على قراءة " لِيَومِ دَفْني" وكأن مريم تطيّب جسد الرب، لكن النص اليوناني كما الفكرة اليوحنوية تشير الى العبادة التي كانت الكنيسة اليوحنوية (عائلة بيت عنيا) تقوم بها، بعد غياب الرب، إكرامًا له.

دون إستبعاد التجذّر التاريخي لحدث مائدة بيت عنيا، يبدو من الواضح أن الإنجيلي يقرأ معضلة تواجه كنيسته، عاكسًا إياها في حياة يسوع، وجاعلًا من جوابه ركيزة لحقيقة مواقفها وخياراتها. لقد وضع يوحنا نفسه في جماعة يوحنوية، كان إيمانها وممارستها الطقسية يثيران إنتقادات البعض في جماعة التلاميذ. ومن خلال قراءته لحدث سكب الطيب على قدمي يسوع، أظهر رأيه في الخِدَم الكنسية المتنوّعة، والمبنيّة على إيمان صحيح بيسوع إبن الله، في جماعة إخوة، كما حدد المعنى لكل عبادة حول مائدة الرب.

لقد تمَّمت مريم ما طلبه الرب من تلاميذه "جَعَلتُ لَكُم مِن نَفْسي قُدوَةً لِتَصنَعوا أَنتُم أَيضًا ما صَنَعتُ إِلَيكم" (١٣: ١٥)، لأن من يعرف كيف يغسل رجلي الرب يعرف كيف يغسل أرجل تلاميذه. إن مائدة الرب التي جعل منها الإزائيون عشاء إفخارستيًا، جعل منها يوحنا مشاركة إيمانية في مائدة الرب الذي قدّم ذاته ذبيحة، وسجودًا تامًا لتلاميذه على قدميه. فللكنيسة التي تحيا أزمة غياب الرب وحضور الفقراء، جواب واضح وأكيد: الإيمان بمن هو القيامة والحياة، والسجود أمامه يبقى العنصر الأساسي لكل خدمة ولكل مشاركة. وليست الأعمال الحسنة سوى نتيجة أكيدة لهذا الإيمان.

بعد أن وضع يوحنا اسس ممارسات يهوذا، أحد التلاميذ المسؤولين بين الإثني عشر الذي سقط في تجربة المال لأن إيمانه بالرب لم يكن حقيقيًا، على بساط البحث، سيدرس حالة بطرس وتجربة السلطة في نص غسل الأرجل.

٣- مائدة الرب في عشائه الأخير: مائدة تجسيد الإيمان (يو ١٣: ١-٢٠)

يحتل نص غسل الأرجل مكانًا استراتيجيًا في الإنجيل الرابع. فبعد الآية الأكبر المتمثّلة بقيامة لعازر التي تُطلِق دورة الآلام، يأتي حدث غسل الأرجل ليفتتح هذه الدورة وليعطي تفسيرًا أولًا لموت المسيح (١٣: ١-٣). ثم أنها المرة الوحيدة في الإنجيل الرابع التي يأخذ فيها يسوع دور الخادم، ليعبّر عن دوره في كشف الله. وللمرة الأولى في الإنجيل، نقرأ لغة المحبة بين يسوع وخاصته.

في تركيز يوحنا على إنتباه يسوع لتلاميذه، الذين سوف يوجّه لهم وحدهم خطاب وداعه، يشير غسل الأرجل الى إفتتاح مرحلة جديدة في رسالة يسوع الإلهية. نحن أمام تسليم يسوع للتلاميذ مسؤولية العمل الذي "عمله" في العالم: "لِتَصنَعوا أَنتُم أَيضًا ما صَنَعتُ إِلَيكم" (١٣: ١٥).

يمكن تقسيم النص الى أربعة أقسام:

- مقدمة (١٣: ١-٣)
- خبر غسل الأرجل (١٣: ٤-٥)
- حوار بين يسوع وبطرس (١٣: ٦-١١)
- تعليم موجّه للجماعة (١٣: ١٢-٢٠)

المقدمة (١٣: ١-٣)

تُدخِلنا المقدمة في الإطار الذي يضعه الإنجيلي لهذه المائدة الأخيرة. يربط الزمن بآلام الرب التي ستنتهي بموته، مع ربطه بالكريستولوجيا بشكل عام وبكريستولوجيا الإرسال بشكل خاص. هكذا يتوضّح معنى "ساعة" يسوع: إنها ساعة موته وتتميم ما جاء لأجله.

أراد يوحنا أن تكون مقدمة الحدث لاهوتية في إطار سردي، فأتى تركيزه على علاقة يسوع بالآب و"عودته الى أبيه"، في إطار سرده لخبر خيانة يهوذا الإسخريوطي (١٢: ٢)[٨] . هذه المقدمة ليست سوى إفتتاحية لمرحلة جديدة في الإنجيل الرابع هي مرحلة ساعة يسوع، ولن تستطيع خيانة يهوذا أن تضع مسألة سلطته وحرّيته الكاملة وتتميمه لرسالته على المحك، بل ستكون مجرّد أداة دراماتيكية لها.

هذه المقدمة هي مثال فريد في الإنجيل اليوحنوي، تدل من حيث طابعها الإحتفالي، ومن حيث مواضيعها والمفردات، على حدث إستثنائي الأهمية.

[٨] هذا ما سيعود اليه في آ ١١ ثم في آ ١٨-٢٠، قبل ذكره للقمة التي سيعطيها يسوع ليهوذا الذي سيخرج على إثرها "ليلًا.

دلّت الدراسات على طابع هذه المقدمة المركّب من مقدّمتين، جمعهما الكاتب النهائي ليجعل منهما مقدّمة جديدة في موازاة مقدمة الإنجيل اللاهوتية (١: ١–١٨). يقدّم فيها كلمة الله التي أتت من عند الآب، تتحضّر للعودة إليه، ما سيتم في القسم الثاني من الإنجيل. إلى جانب عودة الإبن الى الآب، تبرز مسألة إرسال التلاميذ (آ ٢٠).

تدلّ هذه المقدمة إذًا على قصد الإنجيلي من سرد خبر غسل يسوع لأرجل تلاميذه: إنه عمل نبوي–مسيحاني يلخّص كل عمل الإبن في العالم، وما يطلب من التلاميذ أن يقوموا به. هو الذي سيغلب رئيس هذا العالم، وهو المعلم والرب الذي ينقل إرادة الله للتلاميذ، بعمله وتعليمه، ليكملوا عمله بحسب وصاياه وعلى مثاله.

حوار لاهوتي أم نقاش كنسي؟ (١٢: ٦–١١)

في ١٢: ٣–٤ ينقل يوحنا، بالتفاصيل المملة، عملًا جسديًا قام به يسوع غاسلًا أرجل تلاميذه، أثناء العشاء. بحكم توقيته، يبدو هذا العمل شديد الأهمية. فهو يأتي في ختام رسالة يسوع الأرضية، وفي بداية رسالة تلاميذه.

تدل دراسات محيط العهد الجديد الإجتماعي والديني، أن غسل الأرجل، مع أهيمته في الحياة اليومية، كان عمل العبيد. ولا مقابل لما قام به يسوع في أي من النصوص القديمة. لم يقم أي معلم بعمل "خدمة وضيعة" كهذه، تجاه إنسان أدنى منه مرتبة. فالعمل بحد ذاته، وقلب الأدوار الذي تممه يسوع في هذا الوقت الحرج من حياته بين تلاميذه، يبدو إذًا محوريًا في النص.

وبالفعل، فإن الأهمية التي أعطاها العهد الجديد للأمكنة في الموائد العامة (لو ١٧: ٢؛ ٢٢: ١٤، ٢٧)، وللخدمة على الموائد، تدل على أن مجرّد الإشارة إلى خدمة كهذه في مناسبة مماثلة، كانت كافية لو أن يوحنا أراد فقط إلقاء الضوء على تواضع الرب. وبالتالي فإن كان قد اجتهد في نقل كل مراحل هذا العمل الوضيع وتفاصيله، فلا بد من أنه أراد من وراء ذلك إبراز تناقض مقصود: على التلاميذ أن يفهموا، من خلال عمل يسوع، بأي شكل عليهم أن يتمموا المسؤولية الموكلة إليهم، في غياب الرب.

هنا يأتي دور الحوار بين بطرس ويسوع في تأكيد هذا الهدف. فأبعد من أن يكون مجرد لياقات إجتماعية، وتواضع من قِبَل بطرس تجاه المعلم الذي يريد أن يغسل له قدميه، من الواضح أنه حوار لاهوتي بإمتياز. أظهرت الدراسات الوفيرة التي خصّصها الباحثون لهذا النص أن لنا في الآيات ٦–١١ مثال أكيد لنص مشغول بدقة وعناية فائقة. فإن دخلنا في عمق المفردات وتركيباتها، كما في عمق الأسلوب ومميزاته، نرى أن

يوحنا قصد من خلال هذا الحوار تقديم لوحة حول نظرة الجماعة اليوحنوية، لممارسات الجماعة البطرسية للسلطة، إنطلاقًا من نظرة هذه الأخيرة لمسيحانية يسوع.

يصف يوحنا ردة فعل بطرس تجاه عمل يسوع الوضيع (آ٦)، كردة فعل مسؤول يرى صعوبة كبيرة في فهم الطريقة التي يمارس فيها يسوع رسالته ومسؤوليته "كرب ومعلم"، ويطلب منهم تطبيقها؛ وهو ما يؤكده جواب يسوع (آ ٧-٨). وفي الخط عينه، يُكمل الحوار في آ ٩-١٠ ، فنرى بطرس، الذي لم يشأ أن يرى الطابع الوضيع لممارسة يسوع لسلطته، يحاول إعطاءها طابعًا رمزيًا "لا قَدَمَيَّ فَقَط، بل يَدَيَّ وَرأسي أَيضًا". لقد حاول بطرس إضفاء معنى "الطقس الليتورجي" على "الخدمة العملية" التي قام بها الرب، فحاول بالتالي تغيير نوعها بحسب فهمه لشخص يسوع: إن الرب لا يمكن أن يكون "عبدًا" يغسل الرجلين، إنه بالأحرى "كاهن" يمكن أن يغسل الإنسان من خطاياه (أن يعمّده؟). ويكفي أن نقوم بدراسة معمّقة لمفردات الغسل والتطهير في العهد الجديد لتظهر صحة هذه الفرضية. نعم إراد يوحنا من خلال هذا الحوار إبراز التجربة الكبيرة التي من الممكن أن يقع فيها كل مسؤول، لم يعرف حقًّا معنى مسيحانية يسوع الرب، الذي جاء ليعطي ذاته "الى الغاية" محبة بخاصته. تكمن هذه التجربة بالتهرّب من سلطة الخدمة الوضيعة، الى سلطة تكتفي بالمراكز، فتقبل بالخدمات "الطقسية" وتأنف الركوع أمام أقدام البشر.

كان الرب واضحًا وجازمًا في جوابه: إن التلميذ الذي تطهّر، لم يعد بحاجة الى أي طقس تطهير (آ ١٠). لا! لم يغسل الرب رجلي تلاميذه لأنه أراد أن يقوم تجاههم بخدمة ليتورجية، بل بخدمة عادية، يومية، لا تليق إلا بعبد أو ... بتلاميذ يسوع، الذين لم يتقدّم أحد منهم للقيام بها. فإن كان موضوع العماد حاضر في النص، فذلك كمحاولة بطرسية لتفسير ما قام به الرب. أما بحسب يسوع، على ما ينقل يوحنا، فليس عمله إلا تبيان عملي لعمله المسيحاني، ولمسؤولية من يريدون "حصة" فيه "إِذا لم أَغسِلْكَ فلا نَصيبَ لَكَ معي" (آ٨).

علِمتم... إعمَلوا (١٢: ١٢-٢٠)

بعد حواره مع بطرس يتوجّه الرب الى الجميع، شارحًا بشكل مباشر أنه أعطى "نفسه مثلًا"، لمن يدعوه "معلمًا وربًا"، وبالتالي لمن يريد أن يكمل الخدمة في خطّه: إن مسؤولية الخدمة بحسب المعلم والرب، هي خدمة العبد!

صحيح أن المعرفة أساس ضروري، وقد كان لها الأهمية الكبرى في المجتمع أيام يسوع، أعطت للحكماء شعبية وانتشارًا واسعًا[٩]. فقد كان بمقدور هؤلاء أن يقولوا للآخرين كيف يجب عليهم أن يتصرّفوا في مختلف الحالات[١٠]، بسبب ارتكازهم على الشريعة المكتوبة والشفهية ومعرفتهم لها. ولم يغفل العهد الجديد عن الإشارة الى تأثيرهم في المجتمع، فوجّه إليهم لومًا لبحثهم عن مجد العالم، والأماكن الأولى (مر ١٢: ٣٨–٣٩؛ مت ٢٣: ٦–١٠)؛ لو ١١: ٤٣). وقد أعطاها الإنجيل الرابع مكانًا واسعًا (معرفة يسوع لأبيه[١١]، وللبشر وللأشياء[١٢]؛ عدم معرفة العالم لله[١٣]).

لكن يسوع لم يكتفِ من تلاميذه بأن يعرفوا بأن يسوع هو المسيح ابن الله، وبأن يؤمنوا بأنه المخلّص؛ وبأن سلطته ليست على صورة سلطة العالم الذي يبحث عن المجد الأرضي، فتتوافق ممارستها مع معرفتها هذه؛ لكنه أرادهم أن يفهموا أيضًا بأن الصليب ليس فشلًا، وبأن الصليب هو ما يعطي عبارتي "المعلم والرب" معناهما.

فإن كنت "أنا المعلم والرب... أنتم أيضًا". لا يمكن أن يكون يوحنا قد نقل قول يسوع هذا، إلا إذا كان التلاميذ قد أخذوا بالفعل هذه الألقاب عينها. لقد تحوّل التلاميذ، في نهاية القرن الأول، الى "معلمين" و"أسياد" كما "المعلم والسيّد". لكنهم أمام تجربة فَهْم هذه المراتب كسلطة بعيدة عن الخدمة الوضيعة على أقدام البشر، فكان لا بد من التذكير: أعطيت لكم نفسي قدوة... فانتبهوا.

خاتمة

خدمت مرتا مائدة الرب، وسكبت مريم الطيب على قدمية ثم سجدت أمامه حتى مسحت قدمية بشعرها، فثار يهوذا منتقدًا. يتخطّى الحدثُ، كما يظهر من دراسة النص، موضوعَ هدر الطيب، ليصل الى مشكلة

---

[٩] كانت سلطتهم هذه ترتكز فقط على سعة معرفتهم وعلمهم.وقد كانت أورشليم أيام يسوع، عاصمة العلم اليهودي اللاهوتي والقانوني. وكان التلاميذ يتعلّمون منهم في حياتهم اليومية في بيوت العلم. فكانوا بالتالي يتعلمون من الكلام ومن الأعمال التي يرون معلّميهم يقومون بها. يخبر الأدب الرابيني عن شعبية العلماء من خلال العديد من القصص. نقرأ في التلمود البابلي مثلًا "أن أحد عظماء الكهنة كان خارجًا من الهيكل وكان الشعب كله يتبعه، لكن عندما رأوا شمعيا وأبتليون، تركوا عظيم الكهنة وتبعوهما" (يوما ٧١ب).

[١٠] يخبِر فلافيوس يوسيفوس أن حكيمين كان الجميع يشهد لهما بمعرفة شريعة الأقدمين، حثّا شابين للقيام بعمل كومندوس، وإنزال النسر الذهبي الذي كان هيرودس قد وضعه نصبًا فوق باب الهيكل للإنتقام لله، مما أدى الى مقتلهما. قالا لهما "ما أجمل أن يموت الانسان في سبيل شريعة الآباء، لأن نفسه تؤول الى اللاموت وأمانته تدوم الى الأبد، أما الجبناء الذين لم يتبعوا تعليمهما، فقد تعلّقوا في جهلهم بالحياة، وفضّلوا الموت مرضًا بدلًا من موتهم أبطالًا.(يوسيفوس، الحروب، I: ٣٣، ١–٤ (§ ٦٥٠).

[١١] رج ٧: ٢٩؛ ٨: ٥٥؛ ١٠: ١٥؛ ١٧: ٢٥.

[١٢] ٢: ٢٥؛ ٥: ٦، ٤٢؛ ٦: ١٥، ٢٧، ٦٤؛ ٨: ٣٧؛ ١٠: ١٤، ٢٧؛ ١٣: ٣.

[١٣] رج ١: ١٠؛ ٧: ٢٨؛ ٨: ١٩، ٥٥؛ ١٥: ٢١؛ ١٦: ٣؛ ١٧: ٢٣، ٢٥؛ ١يو ٣: ١، ٦.

أكبر تكمن بين رؤيتين مختلفتين للإيمان بيسوع المسيح. فيسوع بنظر عائلة بيت عنيا **هو "المسيح ابن الله** الآتي الى العالم" كما أعلنت مرتا أخت لعازر ومريم في يو ١١: ٥؛ وفي ذلك تعبير عن إيمان الجماعة اليوحنوية، كما يؤكد الإنجيلي في خاتمة كتابه "وإنما كتبت هذه لتؤمنوا بأن يسوع هو **المسيح ابن الله**"، وبالتالي يجب له العبادة والإكرام. فسكب الطيب الغالي ليس إذًا سوى تعبير "ليتورجي" عن الإيمان بألوهية يسوع ومسيحانيته. وكل تعبير، خارج هذا المفهوم يبقى مظاهر لا قيمة لها. أما انتقاد يهوذا لذلك فيبدو أنه مبني على إيمانه المسيحاني اليهودي التقليدي القائم على "الأعمال الحسنة". ويأتي رأي الإنجيلي المدافع عن تصرّفات عائلة لعازر وأختيه، والمنتقد علنًا لرأي يهوذا واصفًا إياه بالسارق، ليشكّل تحذيرًا واضحًا لأعضاء جماعته، الذين يمكن أن يقتنعوا بوجهة نظر يهوذا. إن سكب الطيب والذات أمام ابن الله واجب على المؤمن، بحيث تأتي مساعدة الفقير كنتيجة للإيمان وليس كأساس له، وإلاّ تحوّلت المساعدات الى خطر، كما جرى مع يهوذا الذي سقط أمام تجربة المال، لأن أعماله لم تبنَ على الإيمان الحق.

أما في نص مائدة غسل الأرجل، فالأمر يختلف. صحيح أن المشكلة داخلية هنا أيضًا، لكنها تطرح مشكلة السلطة في الجماعة. فدراسة عناصر النص، برهان على أنه أبعد من مجرّد رمز لسرّي التوبة والمعمودية. ففي معرض طرحه الخاص للحدث، يؤكد الانجيلي بأن جوهر المشكلة يكمن في رفض القديس بطرس لمنطق الأدوار المقلوبة، ولا يفهم كيف يكون السيد هو من يغسل الأرجل. وهو ما يؤكد عليه جواب يسوع، برفضه أن يستلم المسؤولية معه إلا من يقبل بمنطق المسؤول الخادم. إن من لا يقبل هذه الخدمة الوضيعة لا يستطيع أن يقبل إلهًا مصلوبًا.

لقد أظهرت دراسات العهد الجديد، بما لا يقبل الشك، أن الجماعات المسيحية الأولى لم تكن مسكوبة في قالب لاهوتي واحد، مما انعكس اختلافًا في هيكلياتها الخِدَمِيَة، وممارساتها الليتورجية. فإن كانت مائدة الرب، قاسمًا مشتركًا بين مختلف هذه الجماعات، فإن لنا في الإنجيل الرابع برهانًا على أن المعنى الذي أعطته كل جماعة لهذه المشاركة لم يكن موحّدًا. وإن كان الجميع متفق على أن مائدة الرب، كانت مناسبة فريدة للمشاركة في كلمة الرب وذبيحته، فإن توزيع الأدوار فيها بين رجال ونساء، مسؤوولين تراتبيين أو إخوة إلخ، ليس على ما يبدو أمرًا قد تمّ عليه الإجماع منذ البدء. فإن كان الإزائيون قد حفظوا من عشاء يسوع الأخير الطلب من رسله تجديد الإفخارستية بشكل دائم، فإن ما حفظه يوحنا هو الطلب من تلاميذه أن يغسل بعضهم أرجل بعض، لأن السلطة في منطقه هي سلطة الخدمة الوضيعة. وإن كان الإزائيون قد حفظوا لنا

عشاء أخيرًا قام به يسوع قبل آلامه في العلية، فإن يوحنا نقل إلينا إلى جانب مائدة الغسل، مائدة ترأس خدمتها إمرأتان، في بيتهما، بعدما تسبب إيمانهما بيسوع بقيامة "الأخ" من الموت.

انطبع شكل الخِدَم المسيحية بالتقاليد الإنجيلية، المكتوبة أو الشفهية، حيث تتجلّى صورة يسوع مبدأ كل المسؤولين المسيحيين ومثالهم. حاولت الجماعة اليوحنوية البحث عن مكانها وأسس مشروعيتها، فارتكزت على البارقليط في التعليم، وفي العمل الكنسي. لكنها وجدت نفسها أمام مسؤولين خانوا الثقة (على مثال يهوذا)، واستغلّوا السلطة (على مثال ديوترفس في ٣يو ٩)، فكان لا بد من توضيح قناعاتها، بهدف الدفاع عنها لئلا يضلّ بعض أعضائها من جهة، ولتشجيعهم في مواجهة مسؤولي الجماعات المسيحية الأخرى، وتذكيرهم بكلام يسوع وتصرّفاته التي كان التلميذ الحبيب شاهدًا لها.

لنا في عائلة بيت عنيا ومائدتها، وفي نص مائدة غسل يسوع لأرجل تلاميذه، برهان على حقيقة ممارسة جماعية يوحنوية، يلعب فيها الإخوة والإخوات، على حدٍ سواء، أدوارًا رمزية شديدة الأهمية. النصّان دعوة لنا للعودة الى التقاليد الرسولية، وللإنكباب على دراسة الحياة الجماعية الأولى في البيوت/الكنائس، وأساس المشاركة بالموائد المبني، ليس على عادات وتقاليد، بل على عقائد ايمانية. هذه الجماعة اليوحنوية التي كانت تواجه الإضطهادات من الداخل والخارج، علِمت أنها مدعوة لعيش سرّ الفصح، بإيمان ثابت واعٍ بـ "يسوع المسيح إبن الله" ؛ وباتباع عملي لمن "أحب خاصته الى الغاية" حتى بذل نفسه عنهم، جاعلًا من نفسه قدوة، فلنا فيها مثال ودعوة!